القضايا النقدية في كتاب العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده لابن رشيق القيرواني(ت ٤٥٦هـ)

يمثل كتاب العمدة مرحلة مهمة من تاريخ الدرس النقدي والبلاغي العربي، وان كان هناك من الباحثين من يرى ان شخصية مؤلفه تكاد تختفي خلف النصوص الكثيرة التي اشتمل عليها الكتاب، وهي عبارة عن اشعار واقوال نقلها عن كتب الادب، بل ان ما ينسب اليه من آراء انما هو جزء من ثقافته الادبية التي اكتسبها بالاطلاع والمدارسة، وفي الحقيقة ان كتاب العمدة هو كتاب اخباري ادبي واسع متنوع يخص الشعراء وثقافتهم وكل ما هم بحاجة اليه، الى جانب تناوله للقضايا النقدية التي تخص الشعر والتي شغلت الذهنية النقدية العربية، لاسيما قضايا القديم والمحدث واللفظ والمعنى وبنية القصيدة والصدق والكذب وغيرها، الف الكتاب في زمن ارتفعت فيه اصوات الكتاب جنبا الى جنب مع الشعراء، وشهد فترات من التراجع الفني للشعر ، والى جانب ذلك فإنه كتاب في اخبار الشعراء وثقافتهم وسبل استيفائهم لمعايير العمود الشعري .

وقد جهد القيرواني الى سرد جميع ما يحتاجه الشاعر من ادوات ، وكأنه يؤكد ان الموهبة الشعرية وحدها لا تكفي ، بل تحتاج للدربة والثقافة والبصر بأيام العرب وتاريخهم ورواية اشعارهم، وتلك أمور سبق واكد عليها علماء الشعر ورواته الكبار، بوصفها عدة الشعراء ومنهم الاصمعي وابن سلام وابن قتيبة وغيرهم والتي شكلت اهم معايير عمود الشعر عندهم، ولم ينس التطرق الى القضايا المهمة والمواقف والحوارات التي تعزز آرائه، وهذا هو وكد المدرسة النقدية الاندلسية التي حفظت المأثور المشرقي واعادت كتابة القضايا الادبية والبلاغية وطرحتها بأسلوب شيق رشيق، مثلما سيتكرر هذا الامر في مؤلفات اخرى منها كتاب العقد الفريد لابن عبد ربه الاندلسي، ونظرة سريعة الى فهارس كتاب العمدة تؤكد حقيقة التنوع الكبير في المادة الادبية والشعرية والعدد الهائل من النصوص والاقوال والمواقف الادبية والحوارات، بدأت بباب (في فضل الشعر) ثم ذكر عنوانات لاحقة تتعلق به مثل (باب من قضى له الشعر ومن قضى عليه) و(من منافع الشعر ومضاره) و(باب من رفعه الشعر ووضعه).

ولئن اعتدنا في مقدمات الحديث على تقديم موضوع (حد الشيء) والتعريف به فإننا نلاحظ انه بدأ ابواب الكتاب بفضل الشعر والدفاع عنه ،ويبدو انها القضية التي شغلته وكانت احد اسباب تأليفه للكتاب، ربما لان الثقافة السائدة في القرن الخامس الهجري الذي الف فيه الكتاب كان الشعر فيها قد بلغ مرحلة الانحطاط والتراجع وتحول الى سلعة رخيصة على ابواب الوزراء والقواد ورجالات السياسة طمعا وتقربا وخصومة، الامر الذي اثر على صورة الشعراء ومكانتهم في المجتمع.، إلى جانب كثرة الكتاب وخلافهم مع الشعراء فيمن هو افضل ، وافرز هذا الصراع جدلا نقديا رافق القضايا التي كانت سائدة ومنها موضوع اسبقية الشعر ام النثر وفضل أحدهما على الآخر والتي سيتطرق اليها في ثنايا حديثه.

ومن القضايا التي طرقها في كتابه:

- قضية فضل الشعر والدفاع عنه:

ناقش ابن رشيق قضية فضل الشعر على النثر وساق جملة من الاسباب التي تعلل بها في حكمه، يقول: (كلام العرب نوعان، منظوم ومنثور، ولكل منها ثلاث طبقات، جيدة ومتوسطة ورديئة، فان اتفقت بالقدر وتساوت بالقيمة كان الحكم للشعر ظاهرا في التسمية، وكل منظوم احسن من كل منثور)، ويبدو تعصبه للشعر واضحا في هذه المقابلة التي ساق لها الاسباب والمبررات منها ان نظم الالفاظ اصون لها من الابتذال واظهر لحسنها مع الاستعمال، وان اللفظ اذا كان منثورا تبدد في الاسماع وتدحرج في الطباع.

وناقش موضوع اسبقية النثر لتبرير ظهور الشعر فرأى ان الناس اجمعت ان المنثور في كلامهم اكثر واقل جيدا والمنظوم اقل واكثر جيدا محفوظا، وان النثر اصل الكلام فلما رأت العرب حاجتها الى التغني بمكارمها وذكر انسابها وافعالها واوطانها النازحة عنها وفرسانها توهموا اعاريض جعلوها موازين للكلام فلما تم لهم وزنه سموه شعرا لانهم شعروا به، وهذه العبارات تدل على بصر وعمق تحليل و تفكير في الاسباب المفترضة لنشوء الشعر، كما احتج لفضل الشعر بما رمى به المشركون النبي ﷺ والقرآن الكريم من تهمة الشعر والشاعرية الباطلة، لاحساسهم ان الشعر ارفع فنون القول وانه قد بلغ الحجة والمنزلة العظيمة ،الى جانب اقوال النبي عليه الصلاة والسلام في الشعر(ان من البيان لسحرا وان من الشعر لحكمه) واقوال خلفائه ومواقفهم منه، كما رد على من ادعى ان الشعراء يخدمون الكتاب ورأى ان الشعراء يخدمون انفسهم بلا حاجة لمساعدة كاتب او موجه على عكس الكتاب الذين يستنجدون بالأشعار في كتاباتهم ومعانيهم .

ومن فضائل الشعر المعدودة التي ذكرها ان كل كذب اجمع الناس على قبحه الا الكذب فيه فهو مستحسن ، وقد عزز اقواله بالشواهد التاريخية على نحو حادثة بردة كعب بن زهير التي كانت سببا في نجاة صاحبها من الموت، وان من فضائله ايضا ان اشعار اليونان كانت تقييدا لعلم الاشياء النفيسة وحفظوا بها تلك الاشياء وكذلك العرب كان الشعر ديوانها الذي حفظ تاريخها وسجل مآثرها، ويذكر في مقدمة كتابه انه جمع فيه احسن ما قيل من الشعر ولهذا سماه العمدة وعول فيه على قريحته فيما اختار ، واثبت المنتحل في مواضعه .

واما في موضوع حد الشعر وبنيته فقد ظهر واضحا تأثره بالفلسفة ومنهج من سبقه من علماء الشعر ونقادهم وابرزهم قدامة بن جعفر في مصنفه المهم نقد الشعر، وقد تجلى اثر الفلسفة واضحا في تنظيم الفكر الناقد والخروج من العشوائية التي وسمت النقد ، يعرف الشعر بالقول: يقوم الشعر بعد النية على اربعة اشياء، اللفظ والمعنى والوزن والقافية، وانما ذكر الاركان الاربعة وشدد عليها مع النية لان هناك كلاما موزونا مقفى بلا نية الشاعرية ، وبعض

من كلام الله عز وجل واحاديث النبي ﷺ اتزنت وليست بأشعار، وهو يتناول القضية بحذر شديد فلم يطل الجدال فيها، لكنه حين يفصل القول في معاني الشعر يضطرب في رأيه اضطرابا كبيرا بسبب كثرة ما نقله من اقوال كان العامل المشترك فيها هو المصطلح النقدي ، نقل عن قوم قولهم: بني الشعر على اربعة اركان وهي المدح والهجاء والنسيب والرثاء، ....ثم يقول: وقالوا قواعد الشعر اربع، الرغبة والرهبة والطرب والغضب، ومع الرغبة يكون المديح والشكر ومع الرهبة يكون الشوق ورقة النسيب...الخ/١٢٨، ثم يسوق آراء

كثيرة لا يحدد موقفه منها ولا يختار او يعارض، وما يؤكد قضية الاضطراب في المصطلح انه نقل عن احد النقاد اضافته للوصف مع الاغراض الشعرية التي يسميها غيرهم معان وجعل التشبيه والاستعارة ملحقان بالوصف، كأن اشعار المديح والهجاء والرثاء والفخر وغيرها لا تحتوي على الوصف وكأن الاستعارة والتشبيه قصرت على الوصف فقط، ويتعزز اضطراب النظر بما نقله من آراء مثل: تجمع اصناف الشعر على اربعة المديح والهجاء والحكمة واللهو، ثم تتفرع من كل صنف فنونا، وقول آخر: ان الشعر نوعان مديح وهجاء تنتظم المعاني تحتها، وهو لا يمحص ولا يجادل الاراء بل يكتفي بنقلها.

ومن القضايا المتعلقة بالشعر موضوع تكسب الشعراء به، فذكر ان العرب لم تعرف التكسب بالشعر وانما الجزاء، وانفرد بهذا الرأي في معرض دفاعه عن الشعراء، لكنه ينقل ايضا ان النابغة الذبياني كان اول من تكسب به وان الاعشى جعل من الشعر متجرا، ويبو انه يربط موضوع التكسب بشعراء معينين، سبقوا اليها ولم تكن تشكل ظاهرة في الشعر العربي.

وقد قادته هذه المعالجة للشعر تعريفا ومعان الى الحديث عن تعميم الاحكام بغض النظر عن العامل الزمني ، وربما كان رأيه صدى لرأي ابن قتيبة الذي ارسى مبدأ المساواة في المعايير بين القدماء والمحدثين، يقول: ولست افضل في هذه القضية بين القديم والمحدث والجاهلي والمخضرم والاعرابي والمولد الا اني ارى حاجة المحدث الى الرواية أمسّ واجده الى كثرة الحفظ افقر، الدراية بالرواية لاكتساب الخبرة والخزين الاخباري والشعري الذي يحتاجه ، كما حافظ على هذا المبدأ المتزن في الحكم في بحثه لقضية المطبوع والمصنوع ، فيرى ان الاول اصل والثاني ليس متكلفا مثل اشعار المولدين لكنه حصل عفوا فوقع واستحسنوه ومالوا اليه.

ولديه ايضا تصنيف زمني للشعراء ربما بناه على تقسيمات السابقين ومنهم ابن قتيبة وابن سلام، فقسم الشعراء الى :

- جاهلي قديم
- مخضرم
- اسلامي
- محدث

وفي بحثه لموضوع اللفظ والمعنى يظهر اثر الفلسفة جليا في العلاقة بينهما وهو الذي سبق اليه قدامه بن جعفر في كتابه نقد الشعر والذي وصف كتابه بانه اول محاولة منهجية حقيقية لدراسة الشعر، الى جانب اضافاته المهمة لتعريف الشعر الذي كان يعرف بكونه كلام موزون مقفى، فأضاف اليه قدامة ركن المعنى، وينطلق ابن رشيق من النقطة التي انتهى اليها قدامة فيرى ان اللفظ جسم روحه المعنى يرتبط به فيضعف بضعفه ويقوى بقوته ، فاذا سلم المعنى واختل بعض اللفظ كان نقصا للشعر وعيبا عليه على نحو ما يعرض للجسم من بعض العرج والشلل والعور من غير ان تذهب الروح.

ثم عرض للاراء التي فاضلت بين اللفظ والمعنى فذكر ان هناك من يؤثر فخامة الكلام وجزالته على حساب المعنى ومنهم من آثر العكس ، وهو يرى ان التوازن مطلوب ولا يؤثر احدهما على الآخر، جاعلا ارتباطهما كارتباط الجسد بالروح.

ومن القضايا النقدية القديمة التي عالجها قضية المنظوم والمنثور والمفاضلة بينهما ، جاعلا من قضية القرآن والشعر خلفية في البحث ومحتجا بان التهمة الباطلة التي رمى بها المشركون القرآن الكريم والنبي ﷺ وهي تهمة الشاعرية انما لادراكهم لعظمة منزلة الشعر وكونه ارقى فنون القول في مجتمعهم، ومع انه يقر بان ما ضاع من المنظوم كثير لكنه جادل في قضية انتهت وحسم الجدل فيها وانتهى العلماء من بحثها ، الى جانب قضية القرآن والشعر والموقف منه.

- ومن القضايا التي تتعلق بالبلاغة اورد الآراء والقضايا الفنية التي تتعلق بها ووردت في ٣٨ بابا من الكتاب ، وكان سبب ذكره لها امرين:

-1 كونها من الاركان المهمة لعمود الشعر

-2 اهميتها في بناء الصور والمعاني وتوليدها بما يجعل ثقافة الشعراء بها امرا جوهيريا في الاجادة ، ويرى بعض الباحثين ان هذا الاتساع في حضور البلاغة وتفريعاتها في كتاب العمدة يدل على الاثر الذي تركته الدراسات البلاغية على الكتابة والتأليف في منتصف القرن الخامس .

وهناك قضايا فرعية اخرى تناثرت في ثنايا الكتاب مثل تعليل تسمية الشاعر بهذا الاسم وذلك لكونه يشعر بما لا يشعر به سواه على حد قوله، وانما شكل توليد المعنى واللفظ المستظرف او المثل السائر والنادرة الطريفة مؤشرات على الشاعرية ، ومن هذا المدخل عرج على ضرورة امتلاك الشعراء لمعجم شعري لا يتجاوزونه الى سواه مستشهدا بقول الاصمعي: لا يصير الشاعر في قريض الشعر فحلا حتى يروي اشعار العرب ويسمع الاخبار ويعرف معاني وتدور في مسامعه الالفاظ وأول ذلك ان يعرف العروض والنحو والنسب وايام العرب ،فيكرر معايير الالفاظ والمعاني التي تكلم عنها سابقوه مما يعد حجر الاساس في ثقافة الشاعر ، ولا يعد ذلك عيبا في الكتاب لان القواعد النقدية التي تعارف عليها علماء الرعيل الاول من اهل العلم بالشعر

قد انتهت الى ما انتهت اليه من تقعيد، وهي بمجملها قضايا بسيطة لا تتجاوز بدايات نشأة الشعر وثقافة الشاعر ومذاهب الشعراء في القول والقضايا الاخرى التي افرزتها مرحلة الرواية ومن ثم تدوين الشعر.

وبالعودة الى الابواب الفرعية نجد تناثر الكثير من شذرات الآراء النقدية على شاكله العيوب والمآخذ على الشعراء وحسن الابتداءات وتناسب الاغراض وضرورة توافر التنوع في الاغراض في الاشعار، والا يبالغ الشعراء في استخدام البديع لئلا يظهر التكلف ، لكن ابن رشيق اعتمد على آراء من سبقه واتكأ عليها وكان صوته نادر الظهور بينها في الرفض والقبول او حتى ترجيح وجهة النظر ، وتلك من عيوب الكتاب المعدودة التي كان سببها انه كتاب يعتمد الاخبار اكثر من الافكار، لكن ذلك لا يقلل من قيمة الكتاب ودوره في ثقافة القاريء وحفظه للمواقف والاشعار وتنوع الابواب والقضايا التي انطوى عليها.

المصادر:

- العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده/ ابن رشيق القيرواني
- طبقات فحول الشعراء/ ابن سلام
- تاريخ النقد الادبي عند العرب/ د. احسان عباس
- مقالات في تاريخ النقد عند العرب/ د. داود سلوم